الفصل 11

أنتوكس له من العمر خمسون سنة، يتمتع بحيوية كبيرة، رأسه جميل شكلاً ومضموناً، له من المال ما يكفيه فأكثر، فهو رياضي وأنيق، يتمتع بصحة جيدة ويتنفس الرفاهية وطيبة العيش، فهو ناجح في حياته وبعيد عن التّدخين، ولا يبدو عليه أنه قد دخن من قبل، بعد أن عمل لسنوات في صناعة السيارات خضع لإرادة بروموتيم الذي فتح أمامه كنزاً من الذهب، الدعاية من أجل السّجائر، فدعاية السيارات كانت تدر عليه ذهباً، لكن فرصته الجديدة يمكن أن تضاعف من دخله، هذه فرصة؛ لكي يعرف الجميع إمكانياته في هذا المجال.

كانت الشركة تنفق 7 ملايين دولار سنوياً على الدعاية، لكن أنتوكس أقنعهم يرفع هذا المبلغ إلى أحد عشر فأكثر، أصبح أنتوكس يتربع على هرم أكبر شركة مدمرة للعقول في العالم، مهمته الاتصالات والعلاقات والتسويق والكفالات والحملات الدعائية ومحاربة المروجين لإيقاف التّدخين.

كان من سبقه في هذا العمل اسمه ماريون، عمل بالخمسينيات وأشرف على دعاية الشركة، لكنه واجه مشكلات كبيرة عندما قامت إحدى الباحثات الإنجليزيات في بريطانيا بإثبات أن السّجائر ليست مادة طبية كما تروج لها الدعايات، بينما كان ماريون يعتقد العكس؛ لذا جنَّد جيشاً من الباحثين لطمأنة الزبائن، من ضمن ما ادعى هؤلاء أن التّدخين يساعد على تخفيض الضغط وتخليص الإنسان من القلق

وتحسين علاقته مع غيره ومحاربة الملل والتقليل من الإحساس بالوحدة، فأصبح المدخّنون يتباهون بذلك لإثبات رجولتهم إلى غيرهم، ركّزت الدعاية على الجانب الذي يرغبه المدخّن، فتحسنت المبيعات بعد أن ركز ماريون كل اهتمامه على إرضاء رغبة عملائه بالقضاء على القلق والتخلص من الإحساس بالذنب، أصبح المدخّنون مقتنعين بأن رغبتهم قد تم تلبيتها، لقد نجحت دعاية ماريون، فهو لا يروج لبيع السّجائر بل يروج لبيع الإحساس بالمتعة نفسياً وجسدياً.

لقد أصبح السيد لامبدا بطل الدعاية رجلاً مرغوباً ومحبوباً، في بداية 1957م بحث ماريون عن بحارين ورعاة بقر للترويج للسجائر، وإشعار الشعب الطيب أن التّدخين يخلصه من التعب بعد عمل شاق طول اليوم، كانت تلك الأيام هي (أيام الرجولة).

في السبعينيات شارك أنتوكس في اختراع دعايات أخرى من نوع جديد، نوع راق، فهي لعبة جديدة لتلبية رغبة لا تخضع لوعي صاحبها، من خلال دعايات محكمة وأبحاث اجتماعية عميقة، فقد توصل أنتوكس إلى إقناع المدخّنين بأن تداخل العلاقة الجنسية والموت أمر طبيعي جداً، بالرغم من أنه غير مريض جنسياً فقد قام أنتوكس بإضافة صور تحتوي على الأعضاء الجنسية والتناسيلة إلى دعاياته للتأثير أكثر فأكثر في هواة السّجائر، ثم تم إنتاج نوع جديد من السّجائر اسمه (كنغ سايز) معبراً بذلك عن قوة الرجل الفحل، المتسم بالقوة والعطاء.

كان أنتوكس يتباهي بهذه الابتكارات الجديدة، ومن خلال دعاياته التي تتسم بالشفافية كما يدعي ارتفعت قيمة دعاياته، فاشترى صفحة كاملة من مجلة دعائية مرموقة، فطبع في صفحة مجرد فاتورة، وفي الصفحة الأخرى رسم صورة امرأة عارية عارضة فرجها إلى الأمام، عند تصفح القارئ لهذه الورقة يحاول مقارنة الصفحتين، وسرعان ما يقتنع أن الغرض هو مكافأة المدخّن على تشبثه بسجارته.

لكن واحداً من زملاء أنتوكس ذهب إلى أبعد من ذلك، فقد ابتكر سيجارة سماها (الموت) وكان لها نجاح غير مسبوق، غير أن محاربي التّدخين سرعان ما أوقفوا هذه النوعية، ووضعوا حداً لنشاطها.

في عهد ماريون كانت الدعاية تهتم بالشباب البالغين بصفة خاصة؛ لأن الدعاية كانت تخضع لرقابة الدولة، وكان من يروج للتدخين هم الجنود بصفة خاصة، والجندي من البالغين بالطبع.

أما أنتوكس، فقد ركز كل دعايته على المراهقين من اثني عشر فأقل، لقد اقتنع أنتوكس وشركاؤه بأن هذا السن هو الملائم الأكثر لبداية التّدخين، أما ما تحت هذا السن فيبقى احتياطاً، فلا يجب الاقتراب منهم حالياً؛ لأن العديد من مديري المدارس والآباء أبدوا اعتراضاتهم على ذلك.

- تساءل أنتوكس هل أنزل إلى تحت هذا السن؟

- رد شركاؤه: ما دامت لهم شفاه فنحن نريدهم.

- أنتوكس ردّ قائلاً: إن الشركة بلغت القمة، ولا تحتاج إلى دعاية أكثر من اللازم، الاستثمارات الكبيرة لا تدرّ مردوداً عالياً إلا بعد مدة طويلة باستثناء القليل منها، إن الغرض من الدعاية والإعلانات هو ترسيخ التّدخين في عقول المدخّنين.

بهذه الطريقة كسب أنتوكس الرهان والشباب في الوقت نفسه، وخاصة الفقراء منهم والسود بصفة خاصة، وكل من هو سخيف بصفة أخص.

وهذا هو رأي أحد أساتذته الذي تتلمذ عليه، وبهذه الدعاية الناجحة كسب اهتمام أصحاب الأسهم أيضاً.

فالمدخّن وفيٌّ لأنه لا يدخن إلا نوعيته المعتادة، أما الشركة الصانعة فقد تعهدت بعدم التعدي على حقوق الآخرين، بالرغم من أنها تريد كسب المزيد من المدمنين مستقبلاً، صاحب الشركة لا يفكّر إلا في تعويض ضحايا التدخين سنوياً الذين يبلغ عددهم 700.000. بما أن الغرض هو تطوير مبيعات الشركة، فلابد من التفكير في جذب زبائن جدد قبل تفكيرهم في التّدخين، حتى لو اضطرت الشركة لمخاطبة من هو في سن السادسة أو الثالثة؛ لأن كليهما يقلد من هو أكبر منه، والكل يستوعب الدعاية المروجة للسجائر، ذهل أنتوكس مما سمعه، ففكر فوراً في إعلان جديد،

إعلان بسيط جداً، طفل يقدم سيجارة إلى إحدى البنات، فتقوم هذه البنت برفسها، وتقول: (لنتحرّر قليلاً) لأي شيء ترمز هذه الدعاية؟ وفي التلفاز بالذات؟ أغلب الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 4 و5 سنوات الذين شاهدوا هذا المشهد أجابوا أن السّجائر طيبة ويجب التّدخين، كل الأطفال مقتنعون أن الدعاية لا تشتمل إلا على شيء جيد، وهي أصلاً صنعت للترويج إلى كل ما هو جاد؛ لذا يجب التّدخين.

بصفة عامة يقتنع الأطفال الصغار أكثر من الكبار بمصداقية الإعلانات، وفي غالب الأحيان، فالأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة تتضاعف إمكانيات تدخينهم في هذا السن أكثر من غيرهم، أنتوكس بنى تجاربه على هؤلاء دون غيرهم، لقد زوده آدباتريس بمعلومة واضحة جداً، يجب التركيز على الشباب أكثر فأكثر ومخاطبة المدخّنين صغار السن بصفة خاصة.

يبدو ذلك طبيعياً؛ لأنه قليلاً ما يبدأ شخص في التّدخين، وهو في سن الرشد.

كاد نجاح أنتوكس أن يزول عندما تم بصفة مؤقتة، ثم بصفة دائمة منع الدعاية والترويج إلى السّجائر إثر ضغط غير المدخنين والمحاربين له الذين يعدون التّدخين عملاً غير منطقي ولا معقول وغبي.

وبالرغم من هذه الإجراءات الصارمة لم ييأس أنتوكس؛ لأن الحيل لا تنقصه ومتوافرة بكثرة في علب السّجائر بالذات.

عند الضرورة سوف يلجأ أنتوكس إلى ابتكار نوعية جديدة من السّجائر لتلبية كل حاجات الشباب، وخاصة شباب إفريقيا، سوف يبتكر (سيجارة تتلاءم والفقر بإفريقيا).

بمرور الوقت أصبح الاهتمام بالتغليف الموضوع الأهم في التسويق، إذ يجب العناية بالعلبة؛ حتى تصبح غاية في الجمال، لقد خطرت ببال المشرفين العناية أيضاً بكمية النيكوتين حيث تدل ألوان العلب المختلفة على كمية النيكوتين المتوافرة في كل علبة حسب لونها، فاللون الفاتح يدل على قلة النيكوتين، والعلبة المرنة تدل

على قوة السيجارة وكثرة النيكوتين، والعلبة الصلبة تدل على الخفة.. والصحة (لايت) كما يسمونها.

كان أنتوكس يذكّر دائماً كل من يعمل معه بما هو مطلوب منه، وما هي الغاية المنشودة، المطلوب منهم التأثير على العقول الضعيفة، الأطفال بصفة خاصة وتشجيع الكبار على الاستمرارية وعدم الإقلاع عن التدخين والتمسّك به، اهتموا بمهمتكم كمحترفين، كونوا كالسرطان الذي يتقدم وفقاً للمبادئ الأربعة الآتية: (التعلّم، والتطور، والتقدم، ونقل السرطان)، هذه طريقة عملنا والنتائج نفسها قالها أنتوكس مازحاً.

قام المحاربون للتدخين بعمل جبّار، وكان لهم الحوار الآتي مع الشركة المصنّعة:

- لقد شاهدنا دعايتكم بأكرانيا، هذه الدعاية الدنيئة التي تظهر فيها امرأة حامل، وهي تدخن. ماذا ينتظر المدافعون عن حقوق الإنسان لمتابعتكم أمام القضاء؟ كونكم لم تسعفوا امرأة في خطر.

وتابع آخر:

- يجب منع هذه الدعايات نهائياً؛ لأنكم مجرمون.

أجاب أنتوكس: إن السّجائر إنتاج قانوني، ثم تابع:

- إذا أردتم منع الدعاية، فامنعوا بيعها أيضاً... فستفاجؤون بثورة لا مثيل لها.

للعلم فإن إنتاج السّجائر يخضع للقانون مثل قِدَم التاريخ.

لو تم اكتشافه اليوم لتمّ منع بيعه مثله مثل أي مخدر كالقنب أو الهيروين. إن التّدخين عدوى وراثية، والدعاية هي وسيلة التواصل والتوراث هذا ما قاله آخر.

- كفّوا عن دعاياتكم وإعلاناتكم وسوف تقل هذه العدوى، هذا ما قاله طرف آخر.

بابتسامة ساخرة رد أنتوكس:

- أذكّركم أن الغرض من الدعاية ليس البيع بحد ذاته، ولكن الغرض من ذلك هو تحويل الزبائن من نوعية لأخرى، وللعلم فإن الدعاية لا توجه إلا للبالغين الذين اختاروا التّدخين، فهم وحدهم من يختار سجائرهم بعد مقارنة الإعلانات، فالدعاية لا توجه أصلاً للشيوخ، ولا تلجأ أبداً إلى الموسيقا الكلاسيكية، لعلمكم أيضاً فإن نشرة الأخبار المقارنة تصنّف بنسبة 40٪ من بعض السّجائر على أنها مسببة للسرطان، بينما تصنفه أخرى بنسبة 39٪.

- وماذا حول المراهقين؟

- إن المراهق بصفة عامة يبحث عن وسائل تمكنه من اكتساب شخصية غير شخصيته، فهو يبحث عن وسيلة تمكنه من فرض ذوقه للاستقلالية بواسطة أي رمز كان، والسيجارة هي أحد هذه الرموز، فيلجأ إلى إشعالها؛ ليلتحق بركب الكبار مثله مثل من يفتعل الحرائق، تحت ضغط المجموعات، إذ يلجأ الصغار إلى التّدخين، ولا علاقة للدعاية بذلك.

كأن أنتوكس فقد الذاكرة؛ لأنه يدافع عن الدعاية، وكأنها لا دخل لها أبداً في ترويج التّدخين لدى الشباب.

- لماذا تقومون بحملات ضد التّدخين حالياً؟

- لأننا تأكدنا أن أولياء الأطفال والتجار ووسائل الإعلام وحتى الحكومة لا يهتمون بما فيه الكفاية بالوقاية من هذه الآفة؛ لذا اقتنعنا اليوم أن مسؤولية الحد من استهلاك السّجائر والوقاية منها أصبحت في ملعب المصنّعين.

قام أنتوكس بتكليف إحدى الوكالات بتكفل عملية الوقاية، فهي الشركة المسؤولة عن الدعاية نفسها، وطلب منها أن تروج للمبيع وعدم المبيع... الحملات التي تقوم بها شركة بورمورتيم تشمل أربع فئات من المواطنين: رجال من السلطة، الآباء والأساتذة والوزراء، بمعنى آخر سوف يتمرد الشباب على كل هؤلاء، تخلو القائمة من الطيارين والمغنين ولاعبي الكرة ورموز أخرى من رموز الفن؛ لأن هؤلاء لهم دور

آخر في ترويج السّجائر وفي مناسبات أخرى يحتفظ بها أنتوكس لنفسه، وهذا نص من نصوص الدعاية والوقاية كما يريده أنتوكس.

التّدخين هو من خاصية الكبار (لأنه من عادات الكبار)، والكبار هم الغاية التي يصبو الصغار إلى الوصول إليها، يجب حصر التدخين لدى الكبار فقط، كما يجب منع الصغار من التّدخين؛ حفاظاً على صحتهم وصحة غيرهم؛ فالطفل إذا منع من أكل فاكهة ما أكلها، ذلك هو تصرفه بالنسبة للسجائر؛ لأنهم يمنعوني من التّدخين إذن سوف أدخن، وهكذا أسهم الصبيان والشباب ولمدة طويلة في ازدهار مصانع السّجائر.

فالشركات تستعمل شتى الوسائل لإبعادهم عن السّجائر، وقد تلجأ إلى إثارة بعض الأحاسيس المؤثرة مثل الاشمئزار والخوف والغضب، والحزن، والأرق، والفرح والسخرية والتهكم والشهوات.. أو انعدام الانفعال وردة الفعل، كل ذلك من أجل إقناع الآخرين أنها لا تروج لتدخين الأطفال.

كثير من الأطفال والمراهقين ينتبهون لهذه اللعبة القذرة ويميزون بين الهدف الحقيقي والهدف الخفي.

فالشركات قد تلجأ أيضاً إلى شخصيات تثير الاشمئزاز والرفض بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

لكن هذه الحملات ما هي إلا حيل وخداع، لونها يتلاءم مع الوقاية الكاذبة، أي وقاية هذه؟ من يعطي الأوامر لتنفيذ هذه الوقاية الكاذبة هو نفسه من يسلم السيف للسفاح، وهو نفسه من يسلم القداحة لصانع الحرائق.

كان أنتوكس يوزع الكيلومترات من الملصقات والصور، ويرسل النداءات الواحد تلو الآخر عبر المذياع والتلفاز مثل: (التّدخين هو اختيار موجه للكبار فقط، أو التّدخين هو ظاهرة من ظواهر الكبار فقط) تلك هي النداءات الخادعة التي حيّرت الجميعات المحاربة للتدخين والمدخّنين أنفسهم، كيف تفشل الوقاية من التدخين

بالرغم من كل هذه النداءات الصادقة الكاذبة التي تسهم في ازدهار المصانع أكثر فأكثر، أما زميله بوادر فكان يعمل على تعطيل كل الإجراءات القانونية التي تعيق أعمال الشركة (كمنع الدعاية ومنع التّدخين في الأماكن العامة، والتحذيرات الصحية، ورفع الضرائب).

فهو يلجأ لرشوة هذا وذاك وبمبالغ زهيدة لإبرام اتفاقيات تحمي الشركة من الملاحقة أمام القضاء، أو إيقاف الإنتاج.

كان من السهل على أنتوكس إنشاء وتشغيل نواد ومقاه مضادة للتدخين، وكان في منتهى السعادة وهو يقوم بهذه الحملة الضارة النافعة في الوقت نفسه، لقد أعد صورة ذات حدين، النصف الأيسر يحتوي على صورة جميلة وجذابة تجعل من ينظر إليها في حلم دائم، تكسوها ألوان زاهية وجميلة، وتتخللها العديد من فقاعات الدخان، أما النصف الأيمن فيحتوي على شعار في منتهى القسوة كتب عليه وبخط يوحي بالتحكم والتعدي: (لنمتنع عن التّدخين)، فهذه الصورة توحي بالحزن وموجهة لشباب حزين مجرد من أي جاذبية، تتخلل هذه الصورة رقعة بيضاء لا تبشر بخير ولا تذكرك إلا بالعقم، هذه الحملة الشبه الوقائية شجعت الصغار على صنع العديد من الفقاعات الدخانية تقليداً للصورة الأولى مما زاد من عدد المدخّنين الشباب وزاد من سرور أنتوكس بطبيعة الحال، فهذا ما يريده، في الوقت نفسه قام أنتوكس بإرسال نداء عبر الراديو يبث أن إحدى الأمهات تضايقت عندما علمت أن زوجها أرسل ابنه لشراء السّجائر؛ لأن ذلك سوف يشجعه على التّدخين. فتعهد الوالد بعدم إرساله ثانية، وفي الرسالة نفسها يسترسل المتكلم، ويقول: إن من واجب كل الأولياء منع أولادهم من التّدخين، وينتهي النداء بالأغنية الآتية:

نحن أحرار، نحن مستقلون، نحن هادئون نحن لا ندخن. عندما علمت السلطات المعنية بزيادة مبيعات السّجائر بـ 11٪ لدى الشباب انتبهت إلى لعبة أنتوكس الخفية. هناك ستة أخطاء وقعت فيها العائلة المعنية بالتّدخين، وهي الأخطاء نفسها التي قد تقع فيها أي عائلة أخرى.

أولاً: فالأم التي تضايقت من تصرف زوجها حيال ابنه لم تكترث من تدخين زوجها، ولكنها اكترثت من ذهاب الابن لشراء السّجائر

ثانياً: مثل ما هو، فالأب قدوة لابنه.

ثالثاً: الأب المدخّن والأم غير المدخنة يجهلان مدى تأثير التّدخين السلبي على العائلة ككل.

رابعاً: الإعلان وضع خصيصاً؛ ليقنع القارئ أن التّدخين من خصائص الكبار؛ لذا فهو مرغوب.

خامساً: بما أن النداء موجه للكبار، فالولد يتمرد على ذلك للالتحاق بنادي الكبار.

سادساً: حتى يتمكن من إثبات حريته واستقلاليته كان من الطبيعي على الولد أن يتمرد على السلطة ويدخن. ضمن الحيل المستخدمة من أنتوكس تبني أشغال أخرى بعيدة عن مجال السّجائر، فهي جزء لا يتجزأ من الأعمال الدعائية الناجحة التي تمكنه من التهرب من كل ما هو ممنوع على المستوى العالمي، فصناعة التبغ صناعة مباحة واجتماعية وشعبية؛ لذا قام أنتوكس بالانخراط في نادي رقص الروك ونوادي الغناء وإقامة وتنظيم مباريات التنس والكريكت والإشراف على الراليهات وسباق الفورميولاون، فنجاح هذا السباق ست مرات خلال عشرة أشهر زاد من شهرة الشركة في 164 دولة في العالم، شاهد كل سباق أكثر من 500 مليون متفرج تمتعوا بالإثارة والقوة والسرعة الفائقة والنجاح والمتعة والألوان الزاهية للفورميولاون.

فهذه السباقات تزيد من المستهلكين للسجائر، كما تذكر قدامى المدخّنين بعادتهم القديمة لعل وعسى.

من يشاهد هذا السباق تستهويه السّجائر أكثر فأكثر. وهذا هو سر نجاح أنتوكس الذي يتلذذ في الخفاء والعلن. يقال إنه سنة 2006م سوف يدخل منع

الدعاية للتدخين في الفورمولا وون حيز التنفيذ، لكن أنتوكس وجماعته يعدون العدة للّف حول هذا القرار، بوادر وجوركا من معاوني أنتوكس يحاولان إقناع من يساند هذا القرار بواسطة دراسات اقتصادية تثبت أنه لا نجاح إلا بنجاح الفورميولاون، في الوقت نفسه بدأ أنتوكس يهتم بالرياضات الأخرى؛ عله يجد مخرجاً ينفذ منه.

لقد حبك شبكة تضم رياضيين ومدخنين، وبهذه الطريقة غيَّر نظرة الشباب من 13 إلى 16 سنة حول مظاهر التّدخين؛ لأن الكثير من الشباب اقتنع أن أغلب الرياضيين مدخنون، فكسب أنتوكس الرّهان وانهال مئات الآلاف من المدخّنين الجدد على التهام السّجائر بشراهة.

لكي يضمن نجاحه أكثر فأكثر قام أنتوكس، بمحاولة احتواء كل من تسول له نفسه اعتراض سبيله، إلى الآن لم يستطع هؤلاء الأعداء التقليل من أرباح برومورتيم.

أنتوكس يعدهم مصابين بالكساح، كساح المخ بصفة خاصة. عندما يسمع أنتوكس أن أعداء التدخين يدعون أن التّدخين أخطر من حوادث المرور بأربع عشرة مرة وأن صناع السّجائر يتسببون في موت شخص كل ست ثوان ونصف يتضايق كثيراً من هذا الادعاء لكنه يعرف داخل نفسه أن هذه الرسائل لا تؤثر إطلاقاً في الجماهير بصفة عامة والمدخّنين بصفة خاصة.

شيئاً فشيئاً يتدخل علماء النفس في الموضوع وتتعقد الأمور؛ لأنهم يعدون المدخّن ضحية، ضحية مرض انتقل له عبر الدعاية والإعلانات المعسولة المغشوشة، فهو ضحية خطأ اجتماعي، شيئاً فشيئاً يطالب هؤلاء العلماء بتعويض هؤلاء الضحايا، فيقومون بحملات لإثبات شخصية هؤلاء الضحايا، انهار أنتوكس أمام هؤلاء الأعداء الحديثي الولادة، فهم يقومون بتدمير كل مخططاته ويتهجمون على مصالحه، فهم يقومون برفع قيمة الشباب لمساعدتهم في التخلص من العادات السيئة وضغط المجموعات، وبالرغم من أنه غير مدخن، فإنه عندما شاهد

الإعلانات الجديدة الموجهة للشباب لتحريضهم على عدم التّدخين أحس أنتوكس بخفقان شديد في القلب.

لقد جاءت هذه الإعلانات عكس الإعلانات السابقة، فهي أكثر جاذبية؛ إذ إنها تتحدث عن تقييد الحرية والعصبية الجماعية والإغراءات والصحة والحياة، كل هذا بشفافية وصراحة دون أي خفايا تذكر ودون أي إغراءات وأي قيود.

عندما تمعّن أنتوكس في هذه الدعايات عن قرب قدّر علامتها بخمس من عشر، مضيفاً إلى ذلك الإعلان الذي يعبّر فيه أن المدخّن كالخروف المقيد الذي يجرد من صوفه عشر أو عشرين أو ثلاثين مرة دون أي مبالاة على صحته، واقتنع أن هذا أقصى ما يمكن أن يفعله أعداؤه.

أما أوربا الموحدة فلا تتردد في الوقوف بحزم أمام ظاهرة التّدخين: فهم يقومون بما كان يقوم به أنتوكس نفسه. مستغلين في ذلك فنانين محبوبين ومرغوبين من الشباب. لقد وضعت أوربا ميزانية خاصة تقدر بثمانية عشر مليون دولار لمحاربة هذه الآفة على مدى خمس سنوات، بينما بلغت هذه الميزانية في أمريكا أحد عشر مليوناً وثماني مئة ألف لوقاية الشباب من آفة التّدخين، وهذا يعد مبلغاً زهيداً لمقاومة آفة سامة مثل هذه.

استمرت أوروبا في تخصيص 0.13 يورو لوقاية كل ساكن مقابل 800 يورو لدعم الزراعة المشتركة، وبالرغم من كل هذا يعد هذا المبلغ زهيداً جداً وهذا ما جعل آدباتريس ينام مرتاح البال.

لا تزال صناعة السّجائر تتحالف مع الصحف ووسائل النشر لفرض المال ضد العقل، ضد صحة المجتمع، ضد الحرية وضد الحياة نفسها. أنتوكس لا يتوقف عن العمليات الدعائية في الدول الأوربية التي لا تزال تخضع لنفوذه، فهو يقوم بدراسة كل النصوص، واضعاً في اعتباراته الصور ومضمونها والمسوقين المستخدمين لهذا الغرض أو ذاك، الأحلام التي سوف تثار، والأفكار المقترنة بالألوان المختلفة

والأحاسيس التي يشعر بها المشاهد، من خلال هذه الإعلانات، فهو لا يتهاون بأي شيء فيقوم بتحليل أي شيء يمكنه استخدامه في إعلاناته وفقاً لشبكة التوزيع التي يرغب في اقتحامها مثل محلات بيع الجرائد، ومحلات التوزيع، والفنادق، والمطاعم، والمقاهي، ومحطات البنزين أو مكائن الخدمة الذاتية.

أنتوكس لا يختار في إعلاناته القيم الراقية كالبذخ والأناقة والجمال وراحة البال، والمغامرة، والمجازفة والصداقة، والطبيعة والرياضة، والصحة والثقافة، والبطولة، والشجاعة والحرية والرشاقة والحياة النشطة والشخصية الفذة.

للمحافظة على التساوي بين حقوق المرأة والرجل يسهر أنتوكس على إبراز قيمة السيجارة الاجتماعية والثقافية في المجتمع؛ لأن التّدخين هو مفتاح النجاح حسب رأيه.

لإظهار قيمة السّجارة قامت الشركة بابتكار سجارة بطول 95 ملم وفلتر بطول 22 ملم مصحوبة بالعبارة الآتية: هذه السيجارة أفخم من أصابع حاملها من الرجال، بسبب هذه الدعاية التافهة كادت أن تصبح هذه السيجارة المفضلة لعارضات الأزياء الرشيقات. وهكذا أصبح كل مدخن يتباهى بهذه السيجارة العملاقة، وحتى من لا يتباهى بها فدوره آت، فالدعاية الناجحة لا تخلو من أي شيء يمكنها من ضعفاء العقول، المدخّنين الذين يحبون التعرف على الآخرين، وتصاحب هذه المقولة صورة تمثل زوجين وهما يتبادلان القبلات، لقد ابتكر أنتوكس دعاية تجعل من الدخان مظهراً سحرياً. تحت كل إعلان، وفي مكان خفي العبارة الآتية: صحيح أن مواد مسببة للسرطان مثل مادة الزرنيخ (الأرسونيك) وكحول البنزين ومادة الرادون، ومادة القطران، كلها مواد تزيد من جاذبية السّجائر.

حتى داخل الطائرة قام أنتوكس بتحليل الشعارات المخصصة لها التي تشمل كل الأذواق:

أنا اخترت، وأنت؟

من أجل مستقبل أفضل، المغامرة في آخر العالم.

الآن فقط لا بعد لتتذوقها وتتمتع بها.

استمتع بالاسترخاء والمتعة.

صديقك الوفي.

تذوق الحرية.

اختيار البطل.

اختبار الفائز.

معاً نضمن النجاح.

السيجارة تخلصك من عقدة النفس والخجل.

كل قارئ غير منحاز وطبيعي لا يستطيع التماسك من الضحك عند قراءة هذه العبارات السخيفة، أما أنتوكس فلا يضحكه ذلك، فهو يعدها عبارات جيدة واختيارات واقعية. ربما يبرز من بين أصحاب هذه الخيارات شخصية مرموقة تخلفه يوماً لمتابعة مهمته، من يعرف؟ هذه الدعايات المعسولة جذبت الملايين من الأفارقة، إحدى الدعايات الرنانة تمثل رجل أعمال غربياً غنياً ومدخناً ومشهوراً، فالأفارقة يتصورون أن كل الغربيين أغنياء ومدخنون، هل الأفارقة أيضاً يريدون النجاح مثل الغربيين؟ هناك من يقول: (كثرة المعفرة تجبرك على التوقف) وهذا طبعاً غير صحيح.

أما في العناوين الخاصة بالأطفال، فنقرأ الآتي: أطفال الدول الفقيرة، ليس هناك قانون يمكنه التباهي بالكمال، يمكنكم التفتح أيضاً، وكي تصل إلى الرقي وتتحرر يجب أن تدخن. كان لهذه العناوين وقع سحري على الدول الفقيرة التي تسهم بنسبة 70٪ من أرباح شركة التدخين المملوكة من بروموتيم.

تم استقبال أنتوكس بوابل من الصّياح: دخّن، دخّن، لايت هوليود، وسط جمع من الفنانين المرتشين مروجي التدخين في الأفلام، بالرغم من أن الكثير منهم لا يدخن، أثبتت الدراسات أن هذا النوع من الدعاية ناجح وفاعل، منذ 1940م لم تكن للسجائر أي شخصية تذكر، لكن بمجرد أن تتناولها ممثلة تصبح مثل العصا السحرية وبإمكانها جذب العديد من المدخّنين... ومن ثم فوائد أكثر لشركات التّدخين، لم يكن الجمهور يعي أنه مجرد لعبة يقبلها أصحاب شركات التدخين كما يحلو لهم.

عملاء الشركات يطاردون الممثلين وأصحاب الشهرة في كل مكان لإجراء عمل تلفزيوني لصالح السّجائر مقابل مبلغ يتفق عليه. لا ينجو من قبضتهم أحد، حتى مخرجي أفلام الكرتون يقعون في الفخ.

80٪ من الشباب يقعون سنوياً في فخ هؤلاء المروجين غير المسؤولين، من خلال أفلام الكرتون التي تبيح ذلك، للعلم فإن 8٪ من أفلام الكرتون فقط تسهم في هذه اللعبة القذرة، أما الأفلام فتسعة أفلام من عشرة تدخل ضمن الأفلام المروّجة للتدخين؛ فالممثل يدخن خاصة عندما تشتد الأزمة وتبلغ القمة (العقدة) فهنا دور السيجارة مهم، فهي ترافق مشاهد السعادة والحزن والأرق والهناء والغضب أو الراحة، المدخّنون أو من سيدخن مستقبلاً اتفقوا على شيء واحد، ألا وهو وجود السّجائر يحل المشكلات، أو بمعنى آخر تُحل المشكلات بحضور السّجائر.

أنتوكس يعد المدخّنين من ذوي الجمال الفاتن والجاذبية القوية، نموذج حياتهم يتمناه أي إنسان، فالتّدخين بالنسبة له أمر مرغوب ومحبوب، عندما يرى أي شاب فنانه المفضل يدخن يغير نظريته بالنسبة للسجائر، والسينما تسهم في رفع نسبة المدخّنين بست عشرة مرة، مَنْ مِن الشباب لا يتمنى أن يشبه سائقي الفورميولاون، أو كلوديا شيفر ومادونا، أو ليوناردو دي كابريو؟

أنتوكس يحب تذكير محدثيه بالموضوع الآتي: 100 مليون متفرج شاهدوا فيلم تايتنك في صالات العالم، كم من شاب بين هؤلاء تأثر باقتران السّجائر

والأحاسيس الرافضة للسلطة وأصبح مدخناً بعد هذه المشاهدة، كم من سيجارة تم تدخينها بعد هذا المشهد؟

هل تعلمون أن أنتوكس سلم سيلفستر ستالون شيكاً بخمس مئة ألف دولا مقابل التّدخين في خمسة أفلام؟

أما جيمس بوند فقد استلم 350.000، أما روبيردونينو، فقد استلم مبلغاً متفقاً عليه دون الإعلان عنه مقابل فيلم يلعب فيه دور المدخّن المتمكن، بالإضافة إلى هؤلاء المرتشين هناك آخرون مثل بول نيومن كلينت استوود، كامرون دياز، وميج ريان، وجون ترافولتا، وكاثرين دونوف، وفوني اردان، وشارون ستون، كلهم شاركوا في هذه اللعبة القذرة، شارون ستون نالت جائزة هذه الأعمال بعرضها القبيح لصدرها وأفخاذها عرضاً شاملاً غير مسبوق.

أتعلمون أن إحدى نوعيات السّجائر الخاصة بشركة برومرتم عُرضت 40 مرة في فيلم سوبرمان تو، والبران ثلاثة، وأبوكالبس نوو؟

أما الفيلم (Men in Black) فكان قمة النجاح بالنسبة لأنتوكس؛ لأن بطله من المزعج المدخن مغازل متمرس في ملاحقة الحسناوات، مَنْ مِنْ الشباب لا يحب أن يكون مثله؟

في فيلم "تاكسي" سامي ناصري يلعب دور سائق لا يمتلك رخصة ويقوم بدعوة جماهيره الشابة للتمرد على المجتمع بمشاركته سجارته.

لقد قام أعداء التّدخين برفع دعوى على مثل هذه الأعمال، أما أنتوكس فقد تملكه الحزن؛ لأن الكثير من الفنانين والمشاهير تخلوا عنه وأصبحوا يرفضون الترويج للسجائر، والأكثر من ذلك لقد اختفت السّجائر من كثير من الأفلام وكثير من الصالات السينمائية؛ فالعديد منهم أصبح يروج للأفلام الخالية من التّدخين.

حتى الصالات المتعاملة مع شركات التبغ أصبحت تمنع دخول الأطفال لمشاهدة الأفلام التي يوجد بها التّدخين، وقد نجا الكثير من المراهقين من تلاعب أنتوكس

وأمثاله، فغضب أنتوكس وأمر أعداءه بمنع السّجائر إن كانوا قادرين على ذلك، وذكّرهم أن فيلم (جامس دين) «عنفوان الحياة»، الذي تم تمويله من قبله ضاعف من المقبلين على الأمشاط بدل السجائر، فلقد ثار جنونه عندما علم أن ممثلين سيئين وجيدين تخلوا عنه وأصبحوا في صفوف أعدائه بعد أن قبضوا مبالغ طائلة، تخلوا عنه بعد أن أصيب بعض زملائهم بسرطان الرئة أو الذبحة الصدرية.

فنانون آخرون عبّروا عن خيبة أملهم قبل رحيلهم بساعات، لا يقتصر عمل أنتوكس على الدعاية المباشرة فحسب بل يشمل الدعاية غير المباشرة، فالعمل غير المباشر هو تعريف المادة أو الخدمة المحظورة، حتى يتمكن المستخدم من التعرف عليها أكثر فأكثر، لقد بلغ بروموريتيم القمة في ميدان التحايل، فهو يعتقد أن الألوان لها تأثير أكثر من أي دعاية أخرى، سواء أكانت مرئية أم مقروءة، أما أنتوكس فقد ابتدع ردة فعل تشبه ردة فعل بافلوف، يمكن أن يقع في شباكها أي شخص حتى من هو أمي، ولنوعية العلبة دور مهم وفاعل في هذه اللعبة، لهذا الغرض قام أنتوكس بتوزيع طائرات من ورق على الأطفال، بالإضافة إلى الأحذية، وشنط، وساعات، وملصقات، وقبعات بأشكال مختلفة، وواقيات للوجه، ومحافظ نقود، وحافظات جوال، وآلات تصوير، وحلق للحريم، وملابس، وقداحات، وطفايات، وأحذية... لقد قام أيضاً بتبني إحدى ماركات الوسكي والقهوة ووكالة للأسفار وطلب منهم التزيّن بألوان الشركة، وبهذه الطريقة الخبيثة ضمن تضامن الكحول مع السّجائر والقهوة مع السجائر ومغامرة السفر مع السّجائر، تلك هي المعادلة التي حبكها أنتوكس من أجل الوصول إلى غايته، تلك هي الدعاية غير المباشرة التي ضمنت زيادة 6٪ من مبيعات بروموريتيم خلال السنة، ومن بين هؤلاء الزبائن (أنت).

الفصل 12

بدأت العطلة بعد أن قام (أنت) بكل الإجراءات الخاصة بالجامعة، فقد أصبح رجلاً من شهر فقط، لقد حصل على موافقة والديه للذهاب في عطلة مع صديقته فلورانس، كما ضمن تمويل هذه العطلة، وللموافقة على ذلك طلب منه والده أن يتعرف على سوق العمل قبل المغادرة. بقيت ثلاثة أسابيع على المغادرة، اتصل (أنت) بإحدى وكالات العمل المؤقت التي أرسلته إلى أحد المحلات المتخصصة ببيع القوارير ورهنها، سرعان ما اطّلع على هذه الظاهرة الغريبة، وكل خفاياها وروائحها وضجيجها وأنوارها وقلة اهتمام زملائه في العمل وعدوانيتهم لبعضهم والزبائن، سمح له كل ذلك بالتفتح؛ لأنه قبل ذلك كان يعيش في غرفة مغلقة، كل ذلك كان حافزاً جيداً له لمتابعة تعليمه وحصوله على شهادة تقيه من شر هذه الفئة من العمال، وتسمح له بالعيش في رفاهية، مثل ما هو عليه في بيت والديه، حصل حريق بالمحل الذي يعمل فيه بسبب سيجارة أحد المهملين، فأمرتهم الإدارة بعدم التّدخين داخل المحل والخروج إلى الخارج لمزاولة هذه العادة السيئة، طلب من كل مدخن أن يوقع في دفتر الحضور والغياب عند خروجه للتدخين، تلك إهانة كبرى بالنسبة له؛ لأنه كان يظن أنه كمثقف سوف يعامل بشيء من الاحترام.

أما فلورانس فقد تخرجت مربية ابتدائية، وعند بداية السنة الدراسية الجديدة سوف تمتهن التعليم، وهذا هو الحلم الذي راودها منذ الطفولة.

كانت دائماً تحلم بتربية الأطفال ورعايتهم وتقويمهم، فهي صاحبة القيم الراقية والمدرّسة المتمكنة والمناضلة الشجاعة، فلا ترضى بالقليل، ولا تريد إلا الارتقاء إلى الأعلى.

فهي لا ترضى إلا بالحركة الدائمة والحيوية والتغير المستمر، لهذا اختارت (أنت) صديقاً لها لحيوته وطاقته الدائمة وحماسه وتمالكه، منذ ثلاث سنوات تقوم ببعض العمل في الصيف لتأمين بعض المصاريف واكتشاف ميادين أخرى غير ميدان التعليم، فهي تأسف أحياناً؛ لأنها سوف تتجه من المدرسة كتلميذة إلى المدرسة كمربية، إذ من المفترض أنه في هذ العمر (21 سنة) فهي ليست مجبرة على دخول معركة التعليم ومعاشرة تلاميذ من طبقات اجتماعية واقتصادية مختلفة.

بينما هما يعدّان الحقائب للسفر إلى إسطنبول إذا بموزع البريد يطرق الباب. اصفر وجه (أنت) وكانت فلورانس قد لاحظت ذلك.

- ماذا حدث؟ هل تم إلغاء الرحلة؟ أو أفلست وكالة السفر أو شركة الطيران؟

- لا، لا إنه الغبي الذي سبق وأن حدثتك عنه، إنه يعيد لعبته السخيفة، إنه تغيب مدة ستة أشهر وفجأة ظهر، سوف أرمي بهذه الرسالة في سلة المهملات.

- أي رسالة حتى لو كانت من المهملات تستحق القراءة.

- لنفتحها إذن:

بعد فتح الظرف ظهرت الورقة البيضاء كالعادة مكتوباً عليها بحروف لاصقة قُصَّت من الجرائد ومكملة للرسالة السابقة:

لقد تم الحكم عليك..

يتبع.

تفاجأ الاثنان من محتوى الرسالة الغريب واصفر وجههما أكثر فأكثر، فلجأ الاثنان إلى أقرب أريكة وجلسا جنباً إلى جنب. يا ترى حكم عليه بماذا؟ هل حكم

عليه بالنجاح أو بسنة جامعية ناجحة؟ أو حكم عليه بحب فلورانس؟ أو حكم عليه بحضور حفل عائلي كبير؟

- هذه المرة يجب الذهاب إلى الشرطة لحل هذا اللغز ووضع حدّ له.

- وماذا تريد أن تفعل الشرطة لشخص مجهول؟

- إجراء تحقيق طبعاً؛ لأن هذا تهديد بالقتل، فلا يجب السكوت عليه.

- من يقول لك: إني مهدد بالقتل؟ ومن يستطيع تهديدي؟

- لست مديناً لأحد ولا أطالب أحداً بشيء، ولم أقتل أحدا ولم أجرح أحداً، كل ما في الأمر أني جرحت أمي جرحاً صغيراً منذ أربع سنوات.

- لنذهب إلى الشرطة قبل السفر، فنستريح من هذه المهزلة فيما بعد، قام (أنت) بإحظار الظرف الأول ثم الثاني ثم الثالث وذهبا إلى مركز الشرطة، استقبلهما شرطي مرتاب على انفراد، بعد أن تمعن في الرسائل وفحصها وجه لهما بعض الأسئلة العادية وطمأنهما على أنها مزحة مشكوك فيها، وطلب منهما مقارنة الكتابة في عائلتيهما، علهما يجدان الفاعل.

- وعند الضرورة، عند رجوعكما من السفر يمكن الاتصال بزميل لي في المركز يمتهن التصوير؛ عله يساعدكما في إيجاد المتخفي وراء هذه اللعبة، اسمه شاميل، سجلوه؛ حتى لا تنسياه، ثم انصرف لعمل آخر.

- هل استرحت الآن؟

- شيئاً ما؛ لأن المنطق تكلم، لكن العدالة لم تتخذ أي إجراء بعد.

- لو تم تكليف العدالة بمتابعة أي مزحة كهذه، فقد تنتهي العدالة وتتوقف.

- أو تصبح العدالة نفسها مجرد مزحة.

- وضحك الاثنان من صميم قلبهما.

بعد أربع ساعات وصلا إلى المطار، وكالة السفر التي حجزت لهما لا تحجز إلا في طائرات تابعة لشركات معادية للتدخين، فهذا هو الموجود ولا مفر منه، عند صعودهما إلى الطائرة وجلوسهما لاحظ (أنت) فنياً فوق جناح الطائرة يمسك بمفك يا ترى ماذا يفعل؟ يمكنه إخافة أي راكب مبتدئ كصاحبنا (أنت) من حظه أنه يلتهم سيجارتين قبل الصعود إلى الطائرة، وإلا لتملكه خوف شديد.

إنها فعلاً طيبة، السيجارة! تمت الرحلة بأمان ودون أي حدث يذكر، قضى (أنت) كل وقته في مشاهدة المناظر الجميلة من خلال النافذة الصغيرة، كل ذلك أنساه عصبيته وخوفه، أما فلورانس فكانت تمسك بيده وكأنها تريد طمأنته وسلامته؛ لأنها كانت تشعر أنه مضطرب ومستعد للانفجار في أي لحظة، فهي تعرف كم هو محب للتدخين فتزيد شفقتها عليه، طلع الفجر فحطّت الطائرة في إسطنبول مصحوبة بدوي كبير، فاجأهم كبير الملاحين بما يأتي: سيداتي، آنساتي، سادتي، لقد حطت الطائرة مرة ثانية بإسطنبول، أطمئن الكثير من الركاب، أما (أنت) فكان يرتعد وهو غائب عن الوجود جامداً لا يستطيع التعبير عن سروره بأول رحلة يقوم بها مع صديقته إلى بلد جميل مثل تركيا وإسطنبول بصفة خاصة، عند خروجه من الطائرة كان يفكر كيف نجا من هذه الرحلة المرهقة؟ تم نقلهم إلى صالة الخروج بواسطة العديد من الحافلات، (أنت) طلب من صديقته الانتظار قليلاً قبل الصعود إلى الحافلة؛ ليتمكن مع بعض المدخّنين من مرافقة صديقته السيجارة ولو لبضع ثوان، فحياتهم مرهونة بهذه السيجارة التي لا يتجاوز طولها 6 سم، لسوء حظ هؤلاء الشواذ أمرهم أحد المسؤولين عن الأمن بإطفاء سجائرهم لتجنب احتكاكها بمادة الكيروسين الشديدة الاشتعال.

في أثناء الرحلة، وبينما كان (أنت) يتجرع الخوف كانت فلورانس تقرأ برنامج الرحلة، سوف تكون رحلة جميلة وناجحة؛ لأنهما سوف يتمكنان من الاستمتاع بكثير من المناظر سواء مشياً على الأقدام أو بواسطة الحافلات المشتركة المتوافرة بكثرة في تركيا، سوف يتمتعان بمناظر جميلة وروائح طيبة وألوان زاهية، وسوف يشاهدان

ما صنعه التاريخ خلال تسعة آلاف سنة، بداية مما قبل التاريخ مروراً بالإنجيل وعصر الهيتيت واليونان والروم والسلجوقيين والعثمانيين وتركيا الحديثة بقيادة أتاتورك. تاريخ تركيا يبدو وكأنه خلاصة لتاريخ العالم، لقد بهرهم القرن الذهبي وأجواؤه بالإضافة إلى ميناء وجسر جلطا والخزانات البيزنطية وكنيسة سانت صوفيا والمسجد الأزرق ومسجد سليمان. كان إعجابهم أكثر بالسوق البازار الكبير، والذهب اللامع في كل أرجائه، العديد من التجار يجيدون كثيراً من اللغات ويحاولون بيع منتجاتهم التقليدية لكل من يمر أمامهم، وتتلخص هذه المنتجات في مصوغات فضية وذهبية ونحاسية وسجادات يدوية في منتهى الجمال، هذه فرصة طالب الجامعة؛ ليتعلم كيف يحطم الأسعار في بلد تبيع وتشتري كما تشاء.

وأروع كل ما تقدم حفاوة الاستقبال وهي تجارية بحتة يتخللها الكثير من الدفء من هذا الشعب المسالم والمتسامح، ويبدو ذلك من انتشار اللبس القصير والطويل، بالإضافة إلى الحجاب التقليدي، ومن أجمل ما اكتشفنا (أليالي) تلك البيوت الأنيقة الموجودة على حافة البسفور القريبة جداً من البواخر الراسية هناك.

القهوة التركية الأصلية والشاي والراكي كلها كانت حاضرة، وكان (أنت) يتمنى احتساءها دون مبالغة، يا لها من متعة! طوبكابي أيضاً كان حاضراً، كم هي ثرية بذهبها وتاريخها.. وهندستها ومجوهراتها.

كانت الزيارات تتم مشياً على الأقدام أو بالباخرة، زيارات أي شيء دون تحديد، فكل شيء جميل هنا. يا لها من متعة!

بمرور الأيام تأقلم الزائرون على الحياة الشرقية، كلمة ما شاء الله! تكسو السيارات والحافلات وتقيها من أعين المارة والحاسدين كما يبدو في اعتقادهم، إن الله هو الذي يقيها من كل شر، في الحقيقة يبدو ذلك صحيحاً كما يعتقدون.

الصناعات التقليدية تزيد الشوارع جمالاً، وبائع الماء يتباهى بحنفية قربته الجميلة ولا يتوقف عن دق كأسين من نحاس للفت انتباه المارة، فالشوارع كلها تغلي

ببائعي المثلجات والشوربة والكباب والبطيخ، بالإضافة إلى ماسحي الأحذية الذين يتفننون في تلميع الأحذية مقابل مبلغ زهيد، الشوايات أيضاً أخذت نصيبها من هذه الشوارع، وكذلك العتالون الذين يتزاحمون لكسب قوتهم اليومي بمجهود عضلاتهم المفتولة، فالسّجائر تباع هنا في كل مكان حتى بالواحدة طبعاً، فالشوارع تلتهب بالسّجائر والأسعار في متناول الجميع بل زهيدة جداً، المقاهي كلها مملوءة بالزبائن وبلعبة الورق بصفة خاصة.

فالفقراء هنا يعتزّون بكرامتهم وتواضعهم، من بين ما اكتشفاه (أنت) وفلورانس الحمامات التركية التي أعجبتهما كثيراً، واستهوتهما الشيشة الحاضرة في كل المقاهي، فقد جربها (أنت) بعد أن نصحته فلروانس وأصرت عليه. لقد فشلت تجربته معها لأنه لم يجد فيها المتعة نفسها التي يجدها مع معشوقته السيجارة كما وجد أن طعمها غريب ورائحتها معطرة.

- لا مثيل للسيجارة! هذا ما استنتج (أنت).

- ياللأسف! لأنها تبدو أقل ضرراً من السّجائر.

خلال عودتهما بالطائرة قاما بإجراء تعليق حول أغنية يونس أموي: (أمتنا من نوع فريد من نوعها)، اتفق (أنت) وفلورانس على العودة السنة القادمة لاكتشاف الأناضول. بدت الرحلة بطيئة مثل الذهاب وكان (أنت) يودّ لو استطاع أن يدفع الطائرة لفعل ذلك.

الفصل 13

عند بداية العام الدراسي الجديد فاجأ الأب العائلة بخبر طيب ألا وهو الكف عن التّدخين، لقد قرّر ذلك بعد أن تأكد من أن أضراره أكثر من فوائده، وخاصة من الناحية الصحية، كان يعد نفسه ضحية مرض خفي يراوده منذ زمن بعيد ويعذبه عذاباً شديداً، لقد اقتنع أخيراً أن التّدخين أصبح الهاجس الأكبر الذي يسب له إزعاجاً مستمراً لا يطاق. بالإضافة إلى ذلك، فقد قررت المؤسسة التي يعمل فيها أن تصبح ابتداءً من أول يناير من سنة 1998م مؤسسة خالية من التدخين؛ لأن التدخين يكلفها 2830 دولاراً سنوياً على كل مدخن؛ فالمؤسسة حريصة على صحة عمالها وموظفيها، وهذا من صالحها أيضاً؛ لأن السّجائر ليست من كماليات الرفاهية ولا من عوامل المنافسة؛ فالتّدخين قد يصبح شيئاً فشيئاً عبئاً على المؤسسة؛ لذا قرر الوالد التخلص منه؛ مرضاة لنفسه أولاً وتجنباً للّحاق بمن سبقه من ضحايا التّدخين في المستشفيات.

قالت الزوجة، سائلة:

- متى ستبدأ هذا الحدث العظيم؟

النقاش في هذا الموضوع سيبدأ غداً، وفيما بعد ستبدأ مدة تحضيرية مدتها خمسة أسابيع، وتم تحديد تاريخ الإقلاع الخميس 23 نوفمبر، أمس بالذات حاولت تخفيض الجرعة اليومية من السّجائر فشعرت بألم شديد ولم أجد راحة إلا بعد

التّدخين، لكن الآن بعد أن قررت الإقلاع عن التّدخين أحسست بشيء من الراحة، لقد كنت منذ زمن بعيد في صراع دائم مع نفسي، وكنت خائفاً من عواقب وخيمة إذا حاولت الإقلاع، لقد كنت ضعيفاً في محاولاتي السابقة، فالإحساس بالذنب كان يطاردني في كل وقت متى خجلت من نفسي؛ لأني أصحبت مدمناً دون أن أشعر، هل تتذكرين محاولاتي المتكررة وأنا أسوق السيارة في الطريق المزدوج والنزاعات التي نتجت عن ذلك؟ أتذكرين زياراتي المتكررة للمكتبة؟ كم كنت أتعذب وأنا أحاول الاختفاء للتدخين! وأخيراً اكتشفت أنني كنت موجها من طرف سيد يأسرني وفقاً لمصالحه ومصالحه، فقط دون مراعاة لشعوري ومصالحي، وأخيراً شعرت أني وقعت في فخ، واليوم أشعر بالخجل؛ لأن تصرفي أوقع ولدي في الفخ نفسه، الذي وقعت فيه أنا قبله.

وبمرور الأسابيع أصبح الأب يحب أن يتكلم عن المحاولة الجريئة للكف عن التّدخين، فهي حقاً مغامرة عظيمة تشبه لعبة الألعاب النارية المفعمة باللذة والسّرور.

مقابلة الطبيب المعالج للكف عن التّدخين كانت لها الأثر الكبير في الإقدام على هذه المعركة الصعبة، كانت المقابلات تتخللها محادثات شخصية واختبارات وأسئلة وتحاليل لجملة من المعلومات لتسهيل ما هو غامض والاطلاع على ما هو خفي ومعرفة طريقة العيش ومن دخن قبله من العائلة وما هو أسلوبه المتبع في التغذية وأفكاره، وخصوصاً تلك المتعلقة بالسّجائر وشعوره واحساساته وشعوره بالإرهاق وإحساسه بالنجاح، وخاصة إحساسه بالنحافة والعيش دون تدخين وإحساسه بالظهور بمظهر أفضل بعد التخلص من هذه الآفة القاتلة.

أخذ الوالد ورقة بيضاء ورسم ميزاناً عليها، كتب على كفته الأولى ما هي الفائدة التي جناها من التّدخين وعلى كفته الأخرى ما هي مضاره وما هي الأشياء السلبية التي استنتجها من إيقاف التّدخين وما هي الإيجابيات؟ لقد احتاج إلى ساعتين للإجابة عن كل هذه الأسئلة، على السؤال الأول ما هي الفائدة التي جناها من التّدخين؟

لا شيء، من خلال مقابلاته السابقة للدكتور المعالج استنتج الأب أن التحرر من السّجائر أمر صعب ومعقد يجبره على إجراء مراجعة كاملة لنفسه.

بعد هذا أصبحت أتحكم في نفسي وأدخن باستخدام عقلي لا وفقاً لمزاجي. بعد مقابلاتي الأولى مع الدكتور أعقبتها خمس حصص لتحضير الأسباب الداعية للإيقاف، وما الفائدة من الإيقاف وما هي النتائج المترتبة عن ذلك من لذة وألم وزيارة في الوزن؟... إلخ.

تبعت ذلك حصة لا تنسى: تعرفت فيها على حيل وخداعات شركات السّجائر من أضرار جسدية وعقلية معاً. كانت المفاجأة كبرى وأثارت حقده وجنونه على شركات التبغ، فعزم على ألا يتراجع في قراره الصارم للإقلاع عن التّدخين.

لقد اقتنع أنه لابد من التحرر، فهو يشعر بذلك؛ لأنه يريد هذا التحرّر ومصمم عليه؛ لذا فهو يراه في الأفق، لقد أصبح إنساناً آخر يتحكم في حياته الشخصية، ها قد حل اليوم المنشود 23 نوفمبر 1997م.

قام الطبيب المعالج بإعطاء الوالد بروتوكولاً خالياً من الأدوية يسمح له بالتحرر شيئاً فشيئاً من حاجته إلى التّدخين بعد إجراء فحص على طريقة تدخينه المعتادة وعاداته وما ينتج عن التّدخين من تصرفات وعلى من دخن قبله من العائلة، تقرر تزويده بدفتر يرافقه كهويته، تضمن هذا الدفتر إستراتيجية لكيفية التصرف، لكبح شهواته، وهكذا أصبح يعرف كيف يسيرها ويتعرف على حالات الطوارئ ويقوم بالنيل منها قبل حدوثها، وكلما كانت الحالة صعبة زاد استعداده لمواجهتها. منذ ذلك اليوم أصبح الوالد أهدأ فأهدأ، أصبح يواجه شهواته بسهولة فائقة، لقد أصبح يفتخر، ويعتز بأسلوب حياته الصحي الجديد.

العديد من زملائه في هذه المغامرة واجهتهم صعوبات كبيرة جسدياً وعاطفياً أثرت على معنوياتهم وصورتهم في المجتمع، وحتى في تغذيتهم، أما المدمنون على القنب فقد يجرون مقارنات حول ما تحتويه السّجائر من نيكوتين وما تحتويه مادة

القنب من المادة نفسها، فوجدوا أن مادة القطران الموجودة بمادة القنب تعادل ست أو سبع سجائر، متابعة الوالد من طرف الدكتور مدتها سنة كاملة للتعرف على كل ما هو إيجابي في الحالات الخطرة، خضع الوالد لعدة فحوص في مختبرات طوال السنة لتحديد حالته الجسدية بعد التوقف عن التدخين وتقويم الحالة العاطفية، المكتسبات، وإمكانية الرجوع إلى التّدخين وإمكانية انهيار حوافز الإيقاف وكيفية مواجهة الآلام الناتجة عن التوقف وغير ذلك.

بعد سنة من بداية هذه الحملة ضد التّدخين عبَّر سبعة من المشاركين عن سعادتهم بنتائج محاولاتهم، فالوالد الذي كان يعاني من السّعال تخلص منه منذ مدة واسترجع أنفاسه المفقودة وصار ينام باكراً كما تخلص من العرج الذي كان يعاني منه.. واسترجع جزءاً من توهجه الجنسي الذي فقده.

أمام تجربة والده قام (أنت) بمساءلة نفسه.

وهنا تدخلت الأم، وقالت لولدها: وأنت متى ستفهم أن التّدخين مضر ومثير للسخرية في الوقت نفسه؟ لقد أصبحت مثل من يريد نزع ثوب ضيق فعجز عن نزعه.

- وهنا تدخل الأب، وقال: بعد 20 سنة اقتنعت بما تقوله أمك.

إن الخبرة التي اكتسبتها من هذه المغامرة والسهولة التي تخلصت بها من التّدخين سوف تساعدانك على اتخاذ قرارك، أليس كذلك؟! فالإيقاف ليس مشكلة، إنما التدخين هو المشكلة، أنا لا أجرؤ بعدُ على القول: إني تخلصت نهائياً منه، لكن باستطاعتي القول: إن مرحلة النقاهة التي أعيشها ممتعة ومثيرة، كنت أعامل جسدي معاملة سيئة، وابتداءً من اليوم سوف لا أسمح لنفسي بمعاملته بهذه القسوة، بعد أن تعرفت على مضرة التّدخين أصبحت أنظر إلى من يدخن كلقاح ناجع لي! حتى التّدخين السلبي أصبحت لا أتحمله.

بينما الأب يعيش أسعد أيامه لتخلصه من آفة التّدخين ولاحتفاله بولادته الجديدة، بدأ ابنه الفصل الدراسي الأول في الجامعة، فوضعه طيب والحمد لله،

لقد حصل على غرفة في مبيت الجامعة، قاعات المحاضرات والمختبرات لا تبعد أكثر من 800م عن غرفته، يواجه غرفته ملعب يسمح له باستهلاك شيء من طاقته للمحافظة على لياقته، أما مطعم الجامعة، فكان يقدم لهم أكلات طيبة متزنة ومتنوعة تلبي متطلباته اليومية الضرورية.

هناك مناطق مخصصة للمدخنين وأخرى لغير المدخّنين بقاعة الأكل. أصبح للابن العديد من الأصدقاء والصديقات، لقد حذرته صديقته فلورانس من بعض البنات اللواتي يأتين للجامعة، وهمهن الوحيد العثور على زوج المستقبل، بما أن (أنت) مقتنع بصديقته فلورانس، فلا خوف عليه من الانحراف. أما من ناحية محتوى المواد الدراسية، فتلك هي المشكلة: فهي تشمل الفيزياء، والكيمياء والرياضيات والبيولوجيا والجغرافيا والجيولوجيا فيما بعد، لقد بادرهم أحد الأساتذة بالمقولة الآتية: هنا سوف تتعلمون الصرامة والدقة.

تعود (أنت) شيئاً فشيئاً على أجواء الجامعة وأجواء قاعات المحاضرات بصفة خاصة وقاعات الأعمال الموجهة وتجهيزات المختبرات، فالأجواء لا مثيل لها، فالصرامة والجدية من شيم قاعات المحاضرات، أما الأجواء المخيمة على المختبرات، فهي تتسم بالجدّية ومرونة العمل، أما في المطعم وبقية مرافق التسلية فالأجواء تتسم بالراحة والضحك والتسلية، التدخين غير مباح في المحاضرات، لكن يمكن المغادرة للتدخين في الأماكن المخصصة لذلك والعودة دون إزعاج.

نصف الطلبة من المدخّنين، منهم من هو مدمن بشراهة ومنهم من هو على حافة الإدمان، وكثيرون منهم يجهلون مضار هذه الآفة السامة التي حاول أبي أخيراً إقناعي بالاقلاع عنها. لقد استمر الابن في التدخين كالعادة بمعدل علبة في اليوم، وأكثر أحياناً، أقلع عن برم السّجائر؛ خوفاً من اتهامه بالإدمان على المخدرات، ومن يتناول المخدرات يلجأ إلى أماكن آمنة خارج الجامعة، بعض الأساتذة يشاركونهم هذه المتعة المدمرة، ياله من عمل مخيف!.

نظر (أنت) إلى هذه الفئة الشاذة وأخذ يحاول فهم العلاقة الموجودة بين كيفية

التّدخين وشخصية المدمن، لقد لاحظ أن بعض المدخّنين يقدّمون الولاعة للآخرين لإشعال سجائرهم دون إطفائها فاستنتج أن ذلك أسلوب يدل على عدم الرغبة في الاحتكاك مع الآخر.

سنة 1997م كانت مفعمة بالدراسة، الامتحانات على وشك البداية، أنت مازال متردداً بين الدراسة والعمل، فمن جهة يريد الاستمرار، ليثبت قدرته أمام فلورانس وأمام أبويه، ومن جهة أخرى يجد أن بعض الدروس تفتقد إلى المتعة، من حين لآخر يفكر في اختصارها؛ ليعيش مع فلورانس، وقد يجد متعة أكثر في هذا بدلاً من الدراسة غير المجدية، سنة 1997م تعد سنة التغيير بالنسبة له، فهو يرى أن العالم أيضاً تغيَّر، بينما كان يشاهد التلفاز رأى حصة خاصة بوفاة الأميرة ديانا وبكاء الشعب الطيب عليها. في حصة أخرى مخصصة للويس الرابع عشر سمع المحلل يقول: إن كلنتون الفائز بالرئاسة في أمريكا سيكون رئيساً عظيماً، أحداث أخرى تم سردها ذاك اليوم كوصول توني بلير إلى السلطة وإمكانية المصالحة في الشيشان ورجوع هونج كونج إلى الصين، وطالبان، والإرهاب في الجزائر، بالإضافة إلى أجمل المناظر القادمة من المريخ، كل هذه الأحداث هي المتميزة خلال هذه السنة.

لازال الأب يتذوق طعم الحرية، حرية التحرر من السّجائر، فقد بدأ يعيش حياة جديدة، زوجته أيضاً تشاركه هذا العهد الجديد، لقد صارحت فلورانس أن علاقتها الجنسية وعلاقتها ككل تطورت كثيراً وتحسنت منذ إقلاع زوجها عن التّدخين والحد من تسلل السيجارة للتفرقة بينهما.

قبل الإقلاع فقد الأب الكثير من إمكانياته وأصبح لا يرغب في المجامعة؛ لأنه فقد الثقة بالنفس وأصبح لا يجد أي لذة في المجامعة، كان يشعر أن أي مجهود يبذله سوف ينهكه وسوف يثير سعاله ويمكن أن يوصله إلى حالة الإغماء، وربما يضع حداً لقوته الجنسية نهائياً، فالعمليات الجنسية أصبحت بالنسبة له أسوأ الأوقات، حقاً لقد أصبحت غير مجدية ومخيبة للآمال، والآن بعد ان استرجع أنفاسه كل شيء صار يسير على أحسن ما يرام.

والأم رجعت إلى عادتها القديمة بعد أن أوشكت على نسيانها نهائياً، لقد صارحت الأم فلورانس بهذه الأسرار؛ لعلها تستطيع من خلالها إقناع ولدها بالتخلي عن السّجائر أيضاً، في هذه اللحظة كان الابن يتخيل في غرفته أنه يشاهد راعي بقر وهو يدخن سيجارة، وهي موجهة إلى الأسفل. وفي مشهد آخر رأى جمالاً تسرح وتمرح في أحد ممرات المستشفى، بينما كان أحد الجمال يحمل كيساً من الدم موجهاً إليه، لمواجهة هذه الصور المعبرة اغتنمت فلورانس الفرصة لتأنيبه للإقلاع عن التّدخين.

- هل استوعبت ما قاله لك أبوك بخصوص الكف عن التدخين وسهولة التحرر منه؟ يمكن أن تشرح لي لماذا تستمر في التّدخين؟ حتى لوكي لوك أقلع عن التّدخين.. منذ 1983م حتى فيديل كاسترو توقف عن التّدخين!.

فهي تصرخ في وجهه بهدوء، وهو لا يشعر بذلك لو شخص آخر صرخ في وجهه مثلها لأشعل سيجارة ودخن في وجهه.

- أنا أتفهمك وأقدّر شعورك وأعرف براهينك، فهي كلها صائبة، فأنا أقوم بتلويث الجو، وأصرف نقودي لتدمير نفسي، فقدت حريتي... إلخ.

- أعتقد أنه لو استمر تأنيبك لي، فسوف أشعر أني سجين في قفص، والقفص موضوع في سجن عالي الجدران؛ لكي يصبح من المستحيل الهروب منه، ولأن الهروب مستحيل فالقرار الأخير هو البقاء إلى الأبد، وعدم التفكير في الهروب ثانية.

- أنا لا أريد أن تبقى ملاحظاتي دون نتيجة، وأريد أن أراك تجري موازنة تقارن بين نقاط الضعف ونقاط القوة في عملية التّدخين، وأخيراً أريد أن أعرف منك هل السّجائر مشكلة أو هي أحد الحلول لمشاكلك؟ إذا كانت مشكلة فالكف عنها مطلوب، أما غير ذلك، فإننا على استعداد لمساعدتك في التخلص منها، ومن جهتك يمكنك إيجاد من يساعدك على التحرر منها، فأبوك مثلاً تخلص منها وأصبح خبيراً في المجال يمكنه مساعدتك.

- نعم لقد تخلص منها ولكن بعد عشرين سنة من التّدخين المتواصل.

- دون أعذار ولا مقدمات، فمن قبل لم تكن مضرات السّجائر معروفة مثل اليوم، واليوم أصبحنا نعرف أن السيجارة لا تعالج الأرق بل تسببه، هي سنة واحدة وتخرج من الأزمة، يمكنني مساعدتك، انظر إلى أبيك أين كان وأين أصبح اليوم؟ أرجوك توقف.

- عزيزتي، سوف أزف لك بشرى طيبة: بالرغم من أنه من السهل القفز بالمطاط سوف أتوقف.

- أف.. أخيراً!.

- سوف أتوقف قريباً، لكن الآن أنا محتاج إلى السّجائر؛ لكي أركز في الدراسة وأسهر الليالي كما أحتاج إلى التهدئة في أثناء الاختبارات.

سوف أستمر في التّدخين؛ لأن بعض السّجائر تجلب لذة حقيقية.

- سوف أتوقف عن تأنيبك الآن، سوف نتكلم في ذلك لاحقاً، في شهر يونيو، من جهة أخرى لقد قلت لي: إنك أعددت خطة للتوقف عن التّدخين في عطلة الصيف؟ قالت له فلورانس هذا وسكتت. أجابها بابتسامة كاذبة، هل كان يرغب في التخلص من السّجائر باستمراره في التّدخين؟ على سبيل التسلية قام لمدة أيام بتجميع بقايا السّجائر التي يدخنها يومياً، وأخذ يقارن ألوان الفلاتر، لكنه سرعان ما تخلى عنها؛ لأنه لاحظ أنها كلها تقريباً باللون نفسه، فهو دون شك مدخن ماهر.

في 31 مايو 1998م اجتمعت كل العائلة للاحتفال بعيد ميلاده، عائلة فلورانس كانت حاضرة؛ لأنها كانت مدعوة بهذه المناسبة، في الشهر القادم سوف تبدأ الاختبارات، كانت السّجائر مدعوة أيضاً في أثناء الحفل مع أنها غير مرغوبة.

سأل والد فلوراس، قائلاً:

- عند وصولي لاحظت مثلك لافتة كتب عليها بمناسبة اليوم العالمي لمنع التدخين (لنكبر دون تدخين) إنها مناسبة طيبة بمناسبة عيد ميلادك!.

- طبعاً هذه الحملات ضرورية، لكنها مبنية على الجانب الصحي فقط، أين هي الرغبة وأين هي الملذة؟ هذه الحملة لا تهمني؛ لأني كبرت!.. قالها (أنت) ساخراً!.

- أجابه أبو فلورانس، قائلاً: هذا هروب لكنه ليس إجابة مقنعة.. تدخلت فلورانس، وقالت لأبيها:

- أبي هذا موضوع حسّاس، لقد اتفقت معه أن نتكلم في ذلك بعد الاختبارات، وأكد لك أنه وعدني بالتوقف، لم يتبق إلا تحديد الموعد وكيفية التوقف.

- حسناً، فلم نكن نتوقع ذلك منك قال الأب، بالرغم من كل ما يقال حول السّجائر، فالمستقبل لا يبشر بالخير بالنسبة للتدخين.

- يمكنك التفاؤل لكن لعلمك، فإن نصف الشباب من جيلي يدخنون.

- وكم منهم حقاً سعداء؟

ليست لدي أي فكرة، لا أهتم إلا بكيفية تدخينهم: كما أهتم بطريقة إشعال السّجائر لبعضهم، وطريقة وكيفية التخلص من الدخان المصحوبة بتهكم كبير، وكأنهم يتخلصون من عبء ثقيل.

سأل الوالد الحاضرين، ومن يتذكر منهم شعار سنة 1997م؟ فتبع ذلك صمت غير مسبوق.

فأجاب هو على السؤال، قائلاً:

- لنتوحد كلنا في عالم خال من التّدخين، لقد علقت على هذا الشعار؛ لأني كنت أعده بلا طعم ولا رائحة ولا مفعول وغير مرغوب فيه أصلاً.

ومع ذلك، فقد توقفت عن التّدخين اليوم، وأنا في منتهى السعادة. إني فخور

بنفسي؛ لتخلصي من هذه الآفة الخبيثة وأكافح من أجل عالم خال من السّجائر.

وفي الغد وبعد سنة من استلام الرسالة الأخيرة استلمت الأم رسالة مشابهة عرفتها بمجرد رؤيتها، وأرادت فتحها، ولكنها تراجعت. ترددت في إرسالها لابنها؛ خوفاً من تأثيرها على اختباراته. بينما كانت الرسالة مجمدة كان ابنها منهمكاً في الاختبارات النهائية التي كانت سيئة للغاية، فالأساتذة فاجؤوه بأسئلة لم يستطع الإجابة عنها، إذ كانت أجوبته حاضرة لأسئلة أخرى.

فمادة البصريات الهندسية مثلاً كانت غامضة جداً؛ لذا فقد قرر التفرغ لها في عطلة الصيف، بالرغم من ذلك كانت هناك مفاجآت سارة.

فهو نفسه لم يصدق ما حصل له في التفاضل والتكامل ومادة الكيمياء، عكس الجيولوجيا التي كانت مخيبة للآمال.. باختصار، فقد كان يتوقع أنه يحصل على 50٪ من النتائج الجيدة والحذر مطلوب؛ حتى تظهر النتائج الرسمية، في هذه الأثناء اشترك (أنت) في ناد مخصص في ألعاب سيارات السباق الصغيرة للهروب من هول الأساتذة والاستمتاع بالسرعة الجنونية.

بداية يوليو أعلن عن النتائج، لقد نجح في مادة البيولوجيا وفي جزء من مادة الكيمياء، أما في «الترمو ديناميك» فلابد من التفرغ لها في الصيف، المصفوفات أيضاً لابد من مراجعتها في الصيف.

أما مادة الستريو كيمياء، فلابد من العمل صيفاً، كما كان مخططاً لها والتفرغ لها أيضاً، فلقد قرّر هو وفلورانس قضاء أسبوعين معاً، ثم الاعتكاف للدراسة لعل وعسى تحدث معجزة، ألا وهي النجاح في كل المواد باستثناء مادة ونصف المادة؛ حتى لا يجبر على إعادة السنة، فالإعادة ممنوعة، والمغامرة صعبة.

- «لقد جريت وراء الدراسة، لكني لم ألتحق بالركب»، هكذا قالت الأم ساخرة.

ليس هناك حل آخر سوى الدراسة وبذل الجهد، والحمد لله أن الخدمة العسكرية الإجبارية غير واردة حالياً.

كان الأم والأب يتحسران على ولدهما، ولكنهما راضيان بما حصل؛ فهو أحسن من التخلي عن الدراسة نهائياً، في هذه الأجواء غير الواضحة المعالم رأت فلورانس أنه من الأفضل عدم التحدث عن الكف عن التّدخين حالياً، ولتبقَ المحادثة في الثلاجة حتى إشعار آخر، قامت الأم بتسليم الرسالة الأخيرة إلى ابنها ففتحها أمام الجميع دون تردد ولا خوف وقرأ:

(لقد تم الحكم عليك بـ)

يتبع

- نعم إنه محكوم عليَّ بالعمل أو الموت.. وضحك.

لم يتجرأ أحد على التعليق.

الفصل 14

بدأت الخلية السرطانية تنفذ المرحلة الثانية من عملها، مرحلة التطور، فهي ترفض أي مراقبة ولا تخضع لعامل الوقت؛ لأنها أصبحت دائمة لم يتغير أي شيء منها سوى (DNA) خارجياً أيضاً لم يحصل عليها أي تغيير، فلا يمكن اكتشافها! فهي تعمل باحتراف وجدية.

بالرغم من ذلك أنت متمسك بالتّدخين (بنزو) والكثير من السموم الأخرى مثل البريدين Pyridine والنتروزامين والألدهيد، ومادة الأستون لا تزال تتوغل داخله وتحدث أضراراً داخل الجينات والجينات المضادة، وشيئاً فشيئاً تراكمت الانحرافات داخل الجينات.

لقد أصبحت الخلية السرطانية قادرة على النمو بمفردها بعد أن أصبحت سرطانية، إنها الآن قادرة على إنتاج المولات الضرورية لنموها، ومن ثم تتولى إنتاج مولات ضارة تحدث اضطرابات بالخلايا السليمة.

لقد تطورت هذه الخلية إلى درجة أنها لا تخضع لأي رقابة، ولا يقف في طريقها أحد، وحتى الشيخوخة لا تداهمها، وبما أنها لا تخضع لأي مراقبة فتتقسم، وتغرس جذورها في ذُريّته المستقبلية محملة إياهم عيوبه والسموم التي تجرعها من خلال التّدخين.

من خلال هذه الانقسامات تضاعفت الخلية إلى اثنتين ثم أربع ثم ثمان إلى أن

وصلت سنة 1995م إلى ست عشرة خلية صغيرة، في السنة القادمة ستصبح 250 خلية سرطانية، ولا يزال (أنت) مصراً على التّدخين.

فهو لا يعلم أنه سوف ينتج خلايا سرطانية جديدة، وأصبحت مناعته غير مجدية؛ لأن الخلايا السرطانية تتكتّل أكثر فأكثر؛ مستمدة ذلك من المثل الذي يقول: من يجتمع يتشابه، وفي نهاية 1997م أصبح عدد الخلايا 4000 خلية نشطة ثم 64000 في السنة التي تلتها، ثم مليون سنة 1998م، لقد مرت خمس سنوات على تسلل الخلية الأم، وزن مليون خلية هو واحد ميلليغرام وحجمها ميلليمتر مكعب واحد. فهذا هو ما يعقد اكتشافها، من كان يظن أن شاباً عمره تسعة عشر عاماً يحمل ورماً خبيثاً؟ داهمته خلية أولى سنة 1994 وتكاثرت حتى أصبحت مليون خلية سرطانية مثبتة بإقامة دائمة، فهي تتسم بالمناعة ضد الشيخوخة والموت، تتصارع مع بعضها لمتابعة تقدمها المخيف، فالعنيفة منها هي التي تكسب المعركة، بالرغم من موت بعضها تبقى الموازنة ثابتة، وفي هذه المرحلة عملها محدود؛ لأن عملية الغزو والتقدم قد انتهت.

لو تم اكتشاف الورم السرطاني في هذه المرحلة انتهت المعركة، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، وبقي (أنت) على ما هو عليه.

الفصل 15

قام (أنت) بعدة أشغال مؤقتة من شهر أغسطس إلى شهر ديسمبر من سنة 1998م، وكان سعيداً بذلك ويأمل في إيجاد عمل دائم فيما بعد، تلك السنة كانت سنة نعمة وبركة إلهية؛ لأن الاقتصاد العالمي في ازدهار مستمر باستثناء آسيا الشرقية الجنوبية وأمريكا اللاتينية وبولندا، فالبطالة انخفضت إلى نسبة 4.5٪ في أمريكا مما سمح للشعب الأمريكي بالتسامح، ونسيان كلنتون وفضائحه، بما أن حالة الاقتصاد سليمة، فهذا سيسهم في خلق وظائف جديدة وخاصة في شركة شيم آر التي يعمل بها الوالد، فالقسم الخاص بالمواد المضافة بدأ يوظف مندوبين تجاريين مبتدئين، تقدم (أنت) بطلب وظيفة وسرعان ما وجد نفسه أمام الاختبارات والمقابلات والانتظارات الطويلة والمملة أحياناً، بالرغم من أنه ابن مدير في الشركة، فلا يحظى بأي مجاملة، فالمظهر والجدية والفعالية المنتظرة هي التي تحدد قبوله من عدمه.

خلال شهر، وفي أثناء إحدى المقابلات الخاصة بالعمل أخبره المسؤول عن العلاقات العامة أن المؤسسة خالية من التّدخين، وهناك تسهيلات لمن يدخن وضعتها المؤسسة من أجلهم، كما تقدم تسهيلات لمن يريد أن يتوقف عن التّدخين، كل هذا من صالح المؤسسة والمدخّن.

بخصوص وضعك بالذات ليس من الضروري، ولا يطالبك أحد بالتوقف؛ لأن أحد زبائنك يحب المدخّنين، لكنه يمكنك إيقاف التّدخين إذا كانت هذه رغبتك.

عند اطلاع الطبيبة المعالجة على ما تقدم غضبت؛ لأنها حذرته من أضرار التدخين وطمأنته على عدم فصله إن امتنع عن التّدخين، وتمت الموافقة على توظيف (أنت) في 4 يناير 1999م، وكان الراتب المحدد، مغرياً، إضافة إلى بعض الحوافز والمنافع العينية وسيارة للتنقل، ويجب عليه المشاركة في دورة تأهيلية لمدة ستة أشهر قبل بدء مزاولة العمل، وبعد شهرين من التدريب على قيادة السيارة حصل على رخصة قيادة.

حذره والده من أن رخصة القيادة ليست رخصة موت، وقد رأى أن ملاحظة والده في محلها؛ لأنه يعرف خطورة القيادة من خلال النادي الذي كان يزاول فيه لعبة سباقات السيارات الصغيرة.

قضى (أنت) عطلة نهاية الأسبوع مع حبيبته فلورانس، وبما أنهما يعشقان متابعة الأحداث السّاخنة، فقد تابعا معاً أحداث السنة الحبلى بالمفاجآت، مثل فيضانات الأنهار بالصين وإعصار متش الذي خلف حوالي 20.000 قتيل، وتحرّر أندونيسيا من قبضة سوهارتو، وأسر بينوشي من قبل الإنجليز والمهزلة التي تبعت ذلك، والأحوال الاقتصادية مرحة والأحداث تتغامز، والسيناتور دول دشّن تسويق الفياغرا وغلين أصبح رائد فضاء في السبعين من العمر، وباكستان والهند تدخلان نادي التسلح النووي، أما نظام طالبان فقد زرع الشك في نفوس البشرية.